والغزوات وقد احتدمت الحروب ، واهتزت الأرض ومالت بثقلها ، فإذا طلع وجه الخليفة انجلت السحب وانقشع الجو ، وذكر المحاربون بطلعة أمير المؤمنين طلعة النبي فى غزواته فهللوا وكبروا إجلالاً وتوقيراً ، والخليفة على ذلك متواضع خاشع لا يزهى ولا يتكبر :

وَمَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ ... لِلّهِ لاَ يَزْهُو ولاَ يَتَكَبَّرُ
فلو أنَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فوق مَا ... فى وسْعِهِ لمشى إليك المنبرُ

٣

وذلك يدعونا إلى التفكير بهذا المديح يرسله الشعراء العباسيون فيضفون عليه طابع الحماسة والدين والسياسة إلى المديح الخالص الذى يرسم صفات الخلفاء ومزاياهم ، فهم لا يستطيعون أن يفصلوا بينها فى ذلك العهد لأنها مما يرفع شأن الحكام ويعلى مقامهم فى أعين الشعوب ، فلم يقصدوا إلى السياسة قصداً أو إلى الدين عمداً ، ولكنهم جعلوها من حسنات الخليفة وأياديه ، فأضافوا إلى المديح الأموى نظرة واسعة إلى أعمال الخلفاء لم تكن من قبل ، ساق إليها ظرف جديد ومحيط جديد ، يجب فيه على الحكام أن يلتفتوا إلى حال الشعوب ؛ يدفعون عنهم البؤس والنحس والفوضى والفتن ، ويقفون فيه على الأمن والرخاء والعدل والنصر ، وبدونه لا يقع الخليفة من نفس المسلمين موقعاً حسناً . والشعراء أحسوا بهذا فأشركوه بمديحهم وأدخلوه فى معانيهم ، ليدخلوا فى أذهان الناس أنّ الخليفة على صفاته الخلقية الشخصية ، يعنى بالمسلمين فى كل ما يلم بأمورهم ، وذلك كما يفعل أرباب الصحافة الحزبية لعصرنا ، يعلنون الخير ويلمحون به ، ويجمعون للزعماء صفات العدل والنظر إلى أمور الرعية ، فتصدّق الرعية ما يقال وتسير